**محاضرة**
**مؤسسات التعليم في عصور الازدهار الإسلامي**
**إبريل ٢٠٠٨**

**د. عبد الرحمن النقيب**(*)

## (١) المقدمة

لما كانت التربية الإسلامية قد غطت مرحلة تاريخية طويلة تمتد منذ ظهور الإسلام حتى الآن، كما غطت مساحة جغرافية شاسعة تمتد عبر قارات العالم؛ فإن الحديث عن مؤسسات تلك التربية على امتداد الزمان والمكان يعد حديثًا صعبًا، يحتاج إلى مجلدات وليس إلى صفحات، وكذلك الأمر بخصوص طرق التدريس المستخدمة في تلك المؤسسات. وما لحقها من قوة وضعف عبر العصور والبيئات الاجتماعية والثقافية المختلفة. من أجل ذلك، فإن الحديث الحالي يتميز بالعمومية؛ إذ يقتصر على عرض الملامح العامة للموضوع دون إبراز الملامح الخاصة باختلاف الزمان والمكان والمفكرين التربويين. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، فإن هذا الحديث يركز على طرق تدريس العلوم الشرعية في المؤسسات التعليمية

* أستاذ أصول التربية- جامعة المنصورة.



المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

دون غيرها من العلوم. وأخيرًا، فإن هذا الحديث يبين كيف يمكن أن نستفيد من التجربة الإسلامية في النهوض بتدريس العلوم الشرعية في العصر الحديث.

## (٣) النظام التعليمي الإسلامي

لعل أكبر خطأ يمكن أن يقع فيه الدارس للنظام التعليم الإسلامي أن يفصل دراسة هذا النظام عن الروح الإسلامية العامة التي حكمت المجتمع الإسلامي عبر مراحل تاريخه الطويل، وما طرأ على تلك الروح الإسلامية من نمو وقوة، وما اعتراها بعد ذلك من فتور وضمور. فقد كان الإسلام نقطة تحول جذري في حياة العرب: سياسيًا واقتصاديًا، واجتماعيًا، وثقافيًا، وتربويًا. ولن نستطيع أن نفهم ذلك الإقبال الشديد على العلم والتعليم في حياة العرب بعد الإسلام إلا إذا درسنا المبادئ الإسلامية التي جاء بها القرآن، وأكدها الرسول صلى الله عليه وسلم، وطبقها الخلفاء الراشدون والسلف الصالح من بعده؛ لنشر العلم والتعليم في المجتمع الإسلامي.

لقد كان خلف هذا الاندفاع القوي إلى ميادين العلم المختلفة دين يحترم العلم والعلماء، ولا يرضى لأتباعه الجهل والتخلف العقلي. والدارس لكتب التراث التربوي الإسلامي يجد أبوابًا مخصصة للعلم، تبحث في فضائله وتحث عليه، وتبين ضرورة طلبه، ونشره بين الناس.

أما عن فضيلة العلم، فإن الله تعالى يقول: **[**شَهِدَ اللّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ قَآئِمَاً بِالْقِسْطِ**]**[1].

فانظر كيف بدأ الله بنفسه سبحانه وتعالى، وثنى بملائكته، وثلث بأهل العلم يقول تعالى: **[**قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ**]**[2].

ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن العلماء ورثة الأنبياء"[3] ومعلوم أنه لا رتبة فوق النبوة، ولا شرف فوق شرف الوراثة لتلك الرتبة.

---

[1] آل عمران: الآية ١٨.

[2] الزمر: الآية ٩.



المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ولا تكتفي تعاليم الإسلام بتأكيد أهمية العلم والتعليم، ولكنها تحث الناس على طلب المعرفة، يقول تعالى: [ فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي الدِّينِ][٤].

ويقول صلى الله عليه وسلم: "من سلك طريقًا يطلب فيه علمًا سلك الله به طريقًا من طرق الجنة"[٥].

ويقول صلى الله عليه وسلم: "طلب العلم فريضة على كل مسلم"[٦].

فهذه الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة تحث المسلمين على طلب العلم والتزود به وترفع من قدر العلماء.

وحتى يندفع المسلمون إلى التعلم فلابد لهم من علماء يعلمونهم العلم؛ ومن هنا دعا الإسلامي إلى ضرورة نشر العلم وعدم كتمانه، وضرورة أن يبذل كل عالم ما لديه من علم للآخرين. يقول تعالى: [وَإِذَ أَخَذَ اللّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلاَ تَكْتُمُونَهُ][٧].

فهذا حث على التعليم وعدم كتم العلم، ويقول النبي صلى الله عليه وسلم: "لا حسد إلا في اثنين: رجل آتاه الله مالاً فسلطه على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله حكمة؛ فهو يقضي بها ويعلمها"[٨].

ولاشك في أن الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة التي تحث على العلم قد استقرت في الحس الإسلامي، وتربى عليها المجتمع منذ صدر الإسلام. فالتعليم والتعلم لا يمكن أن يكونا مجرد حرفة أو مهنة؛ بل هو عبادة يتقرب بها العبد إلى

---

[3] الترمذي: سنن الترمذي: كتاب العلم- رقم الحديث ٢٦٠٦.

[4] التوبة: الآية ١٢٢.

[5] أبي داود: سنن أبي داود، كتاب العلم- رقم الحديث ٣٤٥٧.

[6] ابن ماجة: سنن ابن ماجة، ج١، ص ٨١ –المقدمة- فضل العلماء والحث على طلب العلم- رقم الحديث ٢٢٠.

[7] آل عمران: الآية ١٨٧.

[8] البخاري: صحيح البخاري، كتاب الزكاة –رقم الحديث ١٣٢٠.



المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ربه. وكما أن العالم في الإسلام مطالب بأن يسعى إلى الاستزادة من العلوم والمعارف، فإنه مطالب في الوقت نفسه بأن ينصرف إلى تعليم الآخرين[٩].

وبهذه الروح الإسلامية اندفع الطلاب والمعلمون لطلب العلم ونشره، وأوقفت الأوقاف لرعاية الحركة العلمية، وتعددت تلك الأوقاف بتعدد المعاهد العلمية، وكثرة الطلاب والمعلمين الملتحقين بها.

ولقد ترتبت على كون أن النظام التعليمي في نشأته كان نظامًا شعبيًا تلقائي النشأة، أن تعددت الأوقاف وازدادت مواردها بازدهار الحياة الثقافية والاقتصادية للعالم الإسلامي، حتى شملت تلك الأوقاف والمحبوسات الدكاكين والبيوت والأرض والمستشفيات. وبذلك استطاعت تلك الموارد الوفيرة أن تقدم الخدمات المتعددة للعلماء والطلاب، مثل الطعام والشراب، والإقامة، والرعاية الطبية وغير ذلك[١٠].

كذلك فقد ترتب على كون أن النظام التعليمي الإسلامي في نشأته كان نظامًا شعبيًا تلقائيًا، أن مؤسسات هذا النظام لم تأخذ شكلاً واحدًا جامدًا؛ بل تعددت أشكاله بتعدد الأهداف الشعبية المرجوة من وراء كل مؤسسة تعليمية. فهناك الكتاب لتحفيظ القرآن ومعرفة أساسيات الدين الإسلامي[١١]، ومن هذه المؤسسات المسجد الجامع لدراسات أكثر تعددًا وتعمقًا[١٢]، والمدرسة أو الكلية وهي دراسة أكثر تخصصًا وتحديدًا، وتتطلب تفرغًا كاملاً، وإقامة داخلية في المدرسة[١٣]، والبيمارستانات لتلقي العلوم الطبية، والمراصد لتلقي علوم الفلك[١٤]، إلى غير ذلك من المؤسسات التربوية العديدة[١٥]، التي أفرزتها الحاجات الجماهيرية ورعتها الحكومات الإسلامية عن طريق الدعم المالي والاعتراف المعنوي بنفوذ أساتذتها

---

[9] عبد الرحمن النقيب: بحوث في التربية الإسلامية –الكتاب الثاني، ص٧٩.

[10] محمد محمد أمين: الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر (١٢٥٠- ١٥١٧م)، ص ص ٢٣٢- ٢٧٥.

[11] أحمد شلبي: تاريخ التربية الإسلامية، ص ص ٤٤- ٥٧.

[12] المرجع السابق، ص ص ١٠١- ١١١.

[13] Tihawi: Origins Character of Almadresah, pp. 225- 238.

[14] Sayyed Hossein Nasr: Iskamic Science, pp. 19- 24.

[15] سعيد إسماعيل علي: معاهد التربية الإسلامية، ص ص ٤٥٧- ٦٤٠.



المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وطلابها. ولن تجد مدينة إسلامية أو قرية من القرى إلا ووجدنا فيها لونًا من ألوان هذا التعليم يتناسب وحاجات أفرادها، ويوفره أهل جماعة القرية كما يقول الفقهاء.

## (٣) التعليم في الكتاتيب

عرف العرب الكُتَّابَ قبل الإسلام؛ إذ أنشا الكتاتيب في الحيرة والشام وشبه جزيرة العرب. وعندما جاء الإسلام طورت لتلبي حاجات المجتمع الإسلامي. وهكذا ظهر نوع جديد من الكتاتيب التي لا تقتصر على تعليم القراءة والكتابة؛ بل تهتم بتحفيظ القرآن الكريم والحديث الشريف والفقه[١٦]. ولعل تلك المؤسسة بشكلها الإسلامي الجديد قد ظهرت منذ عهد الرسول –صلى الله عليه وسلم، وازدادت انتشارًا من بعده لتلبي حاجات المسلمين لتعليم أبنائهم تعليمًا إسلاميًا يحتل القرآن فيه مركز الصدارة. ويرى ابن حزم أن القرآن قد دُرِّسَ قراءة وكتابة للصبيان وللرجال وللنساء زمن الرسول –صلى الله عليه وسلم- ثم استمرت هذه الحركة التربوية في عصر الخلفاء الراشدين. يقول ابن حزم: "ثم مات أبو بكر وولي عمر، ففتحت بلاد فارس طولاً وعرضًا، وفتحت الشام كلها، والجزيرة ومصر كلها، ولم يبق بلد إلا وبنيت فيه المساجد، ونسخت فيه المصاحف، قرأ الأئمة القرآن، وتعلمه الصبيان في المكاتب شرقًا وغربًا"[١٧].

وهذا يؤكد أن حركة التعليم كانت قد تدعمت في المجتمع الإسلامي الأول، وأن مكاتب الصبيان لتعليم القرآن كانت قد أنشئت بالفعل في عهد عمر بن الخطاب إن لم يكن قبل ذلك، وليس في العصر الأموي؛ كما تذهب إليه أكثر الدراسات المعاصرة؛ جريًا وراء أسطورة أن عهد الرسول الكريم والخلفاء الراشدين لم يكن عهد استقرار وعلم وتعليم بقدر ما كان عهد غزوات وفتوح. ولقد غاب عن هؤلاء الدارسين أن الفتوحات والغزوات لم تكن هدفًا في حد ذاتها تعطل من أجله شؤون العلم والتعليم؛ وإنما كانت وسيلة لإزالة العوائق التي تحول بين

---

[16] ملكة أبيض: التربية والثقافة في الشام والجزيرة، ص ٢٤٢.

[17] ابن حزم: الفصل في الملل والنحل، ج١، ص٦٧.



المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

المسلمين وتأدية فرض من فروض دينهم، ألا وهو نشر الدين الإسلامي على أوسع نطاق ممكن. ولم يكن هذا الغزو حائلاً بين المسلمين وبين العلم والتعليم، بل كان أداة من أدوات نشر الدعوة، وما يتصل بها من علم وتعليم[١٨].

يقف الدارسون للتربية الإسلامية طويلاً أمام المكان الذي يوجد به الكتاب، ويميل أكثرهم إلى أن الكتاب قد بدأ في المسجد، ويرون أن استقلال الكتاب عن المساجد كان بسبب عبث الصبيان في المسجد، ويأمرون المعلمين أن يتخذوا لهم أماكن منفصلة عن المساجد لتعليم الصبيان. ويذكر أحمد شلبي أنه وردت توصيات كثيرة تظهر أن الكتاب كان خارج المسجد. ومن ذلك ما قاله الإمام مالك عندما سئل عن ذلك: لا أرى ذلك يجوز؛ لأن الأطفال لا يتحفظون عن النجاسة[١٩]. وقد ورد في كتب السنة ما يؤيد ذلك؛ لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- أمر بتنزيه المساجد من الصبيان والمجانين.

ورغم ما قاله الفقهاء؛ فإن هناك شواهد تاريخية كثيرة تؤكد أن الكتاب ظل أحيانًا كثيرة في المسجد، والذي يقرأ ابن حبير وابن حوقل، ورحلة ابن بطوطة يجد ذكر الكثير من الحلقات التي التف فيها الأطفال في المسجد حول معلم القرآن[٢٠].

ويبدو أن عدد الكتاتيب قد ازداد زيادة سريعة وضخمة حتى أصبح في كل قرية كتاب؛ بل ربما وجد في القرية الواحدة أكثر من كتاب. وقد ذكر ابن حوقل أنه عد قرابة (٣٠٠) معلم كتاب في مدينة واحدة هي مدينة بلرم في صقلية[٢١]، ولا شك أن تلك الزيادة تعكس الطلب الجماهيري على التعليم من ناحية، وما أتيح لهذا الطلب الجماهيري من وسائل الإشباع من ناحية أخرى. فقد أوجب الإسلام على الآباء أن يعلموا أولادهم إذا كانوا قادرين على ذلك[٢٢]، كما أن الأوقاف التي كان يحسبها المحسنون من محبي العلم والمعرفة -إضافة إلى ما كان يسود

---

[18] عبد الرحمن الحجي: نظرات في دراسة التاريخ الإسلامي، ص ص ٢٥- ٥٤.

[19] أحمد شلبي: التربية الإسلامية: نظمها، فلسفتها، تاريخها، ص٥٣.

[20] المصدر السابق، ص٥٤.

[21] المصدر السابق، ص ٥٤.

[22] أحمد فؤاد الأهواني: التربية في الإسلام، ص ٦٧.



المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

المجتمع الإسلامي من شعور بالتكافل الاجتماعي بين أفراده –أتاح لكثير من الطلاب مواصلة التعليم في الكتاتيب وغيرها من المؤسسات التعليمية.

لقد ظلت الكتاتيب مطارح التعليم الشعبي لعامة أبناء المسلمين، وظلت تلك الكتاتيب الإسلامية تؤدي دورها عبر عصور الإسلام المختلفة حتى نازعتها هذا الدور المدرسة الإبتدائية الحديثة؛ واستطاعت أن تحل محلها في كثير من بلدان العالم الإسلامي، في قصة طويلة تحتاج إلى دراسات خاصة مستقلة. وما بقي منها مازال يؤدي دوره في حفظ القرآن وثقافة الإسلام حتى الآن، وإن كان يحتاج إلى عناية ورعاية وتطوير.

## (٤) التعليم في المسجد

تؤكد لنا الشواهد التاريخية الصادقة حرص رسول الله –صلى الله عليه وسلم- على نشر العلم بين أتباعه، وأنه اتخذ من المسجد النبوي مكاناً للعلم والتعليم. ولم تمض سوى مدة وجيزة حتى ظهرت قيادات تربوية من الرجال والنساء، مثل: أبي بن كعب، وزيد بن ثابت، ومعاذ بن جبل، وأبي الدرداء، وسعد بن عبادة، وأبي عبيدة عامر بن الجراح، وأسيد بن حضير، وأم المؤمنين عائشة، رضي الله عنهم أجمعين[٢٣].

ثم ظهر أهل الصفة في مسجد الرسول –صلى الله عليه وسلم- ففرغوا أنفسهم لطلب العلم والجهاد. ولقد بدأ عدد أهل الصفة قليلاً، ثم ظلوا يتزايدون فيما بعد؛ إذ إن بعض الروايات تجعلهم عشرين في حين أن روايات أخرى تصل بهم إلى أربعمائة من القراء المجاهدين، ولقد عكفت هذه الأعداد الكبيرة من أهل الصفة على التعليم والجهاد؛ إذ كانوا يخرجون في كل سرية من سرايا الرسول صلى الله عليه وسلم. ولعل أهل الصفة هم النواة الأولى لفكرة المدرسة التي ظهرت فيما بعد، وكان يتفرغ فيها الطلاب والمعلمون لطلب العلم والتعليم نظير أجور أو أرزاق ينالونها من الأوقاف، مع فارق أساس هو أن أهل الصفة قد جمعوا بين

[23] عبد الحي الكتاني: نظام الحكومة النبوية، ج١، ص ص ٤٢ - ٤٧.



المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

العلم والجهاد؛ بينما اقتصر معلموا المدارس في الغالب على طلب العلم. كذلك فإن أرزاق أهل الصفة لم تكن منتظمة بعكس أرزاق معلمي المدارس؛ فقد كانت منتظمة عن طريق الأوقاف ثابتة الدخل والمنصرف[٢٤].

وفي هذا الجو التعليمي –التعلمي ظهرت كفاءات علمية متعددة، كعلي بن أبي طالب، وعبد الله بن العباس رضي الله عنهم. وكان الأخير يسمى البحر لسعة علمه، وكان يعلم علوم الدين، واللغة، والشعر، وحرصًا على إفادة طلابه الكثيرين، وتلبية طلباتهم كان يخصص يومًا للقرآن والتفسير وثانيًا لمغازي رسول الله -صلى الله عليه وسلم، وثالثًا لأيام العرب، ورابعًا للأنساب، وخامسًا للشعر والنحو. وكان عمر بن الخطاب –رضي الله عنه- يلفت نظر عمال الدولة وقادتها إلى تلك الكفاءات العلمية المتعددة عندما قال لهم في مؤتمر الجابية: "من أراد أن يسأل عن القرآن فليأت أبي بن كعب، ومن أراد أن يسأل عن الفرائض فليأت زيد بن ثابت، ومن أراد أن يسأل عن الفقه فليأت معاذ بن جبل، ومن أراد أن يسأل عن المال فليأتني، فإن الله سبحانه وتعالى جعلني خازنًا قاسمًا"[٢٥].

ولقد أقبل طلاب العلم على تلك الحلقات الدراسية التي كانت تعقد بالمساجد المنتشرة في أرجاء الدولة الإسلامية؛ حتى أن الحلقة الواحدة كانت تضم المئات، بل الألوف. وتروي المصادر أن أبا الدرداء كان من أوائل من عقد هذه الحلقات في بلاد الشام، وأن عدد طلابه قد بلغوا ألفًا وستمائة ونيفًا، وأنه كان يقسمهم إلى مجموعات، ويضع على كل مجموعة عريفًا يحفظهم القرآن.

ويجب أن نلفت النظر هنا إلى أنه منذ أن بنى رسول الله –صلى الله عليه وسلم- مسجده في المدينة مكانًا للعبادة، والتعليم، وإدارة شؤون المسلمين، أصبح تقليدًا إسلاميًا. ولهذا اهتم الحكام المسلمون بإنشاء المساجد رمزًا لقيام دولة الإسلام، وسيادته على الأقطار الداخلة فيه. وتمثل المساجد الجامعة الكبيرة في العواصم الإسلامية رموزًا حضارية. وكانت تلك المساجد عبر العصور أماكن علم، وعبادة، وقيادة، وتوجيه. ويذكر المؤرخون أمثلة لذلك: جامع عمرو بن

[24] المصدر السابق، ص ص ٤٧٢- ٤٨٠.

[25] المصدر السابق: ص ص ٤٠- ٤٨.



المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

العاص بالفسطاط الذي أنشئ سنة ٢١هـ، وجامع أحمد بن طولون الذي أنشيء عام ٢٥٩هـ، والجامع الأزهر الذي أنشئ عام ٣٦١هـ[٢٦]. لقد كانت هذه المساجد الجامعة مركزًا للنشاط الديني والاجتماعي، ومكانًا للاحتفالات الدينية في الأعياد والمناسبات الإسلامية، ومقرًا لرجال القضاء والحسبة يباشرون منه تنفيذ أحكامهم، ومؤسسات للتعليم بشتى أنواعه: النقلية والعقلية. وبجوار هذه المساجد الجامعة في العواصم انتشرت المساجد في مدن العالم الإسلامي وقراه، لكي تقوم بدورها الديني والتربوي في حياة المسلمين. وتمتعت تلك المساجد عبر العصور بحرية فكرية وعلمية واسعة، ولم تتقيد تلك الحريات إلا في عصور التخلف والضعف. ومازالت المساجد الكثيرة المنتشرة في أرجاء العالم الإسلامي بحاجة إلى حركة إسلامية تربوية تعيد لها دورها التربوي المؤثر.

## (٥) التعليم في المدارس

كان ظهور المدارس تطورًا طبيعيًا لتنوع العلوم، وشدة إقبال الناس على حلقات العلم؛ ولهذا حفلت كثير من المساجد بحلقات دراسية عدة، لا بحلقة واحدة، وكان ينبعث من كل حلقة من هذه الحلقات صوت المدرس يلقي الدرس، وأصوات الطلاب يسألون، ويناقشون، وكانت تتلاقى الأصوات المتصاعدة من الحلقات المختلفة؛ فتحدث في المسجد شيئًا قليلاً من الضجيج يمنع الصلاة والعبادة من أن تؤدى على وجهها الأكمل. ثم إن العلوم تطورت بتطور الزمن، وظهرت علوم تستدعي دراستها الحوار والنقاش؛ وهذا يتنافى مع ما يجب أن يكون عليه رواد المساجد من هدوء وسكينة. وهناك عامل ثالث ساعد على ظهور المدارس هو أن جماعة اشتغلوا بالتعليم معظم وقتهم، وحاولوا أن يرتزقوا عن طريق حرف بسيطة كانوا يقومون بها مع التدريس؛ ولكنهم فشلوا في الحصول على مستوى مناسب من العيش، فلم يكن بد حينئذ من إنشاء المدارس لتضمن لهم جرايات تقوم

[26] المقريزي: الخطط المقريزية، ج٤، ص ص ٧٩- ٨٩.



المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

بحاجاتهم[٢٧]. أما العامل الرابع الذي أدى إلى ظهور المدارس فهو روح الخير العام الذي كان يسود المجتمع الإسلامي؛ فالمسلم يتلمس أفضل أبواب الإنفاق في سبيل الله. ولا شك أن الإنفاق على نشر العلم والتعليم كان من أهم أبواب هذا الإنفاق. يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاثة: إلا من صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له"[٢٨].

وفهم المسلمون أن الوقف على التعليم هو أفضل أنواع الصدقات الجارية، فظهرت الأوقاف التعليمية وازدادت إيراداتها، واندفع الخلفاء والأمراء والأثرياء والعلماء إلى إنشاء أنواع متعددة من المدارس يتفرغ فيها الطلاب والمعلمون لدراسة علوم معينة يحددها الواقف[٢٩] ولقد امتاز التعليم في المدارس بأنه تعليم نظامي طوال الوقت[٣٠]. يقول أحد الباحثين: "إن عددًا من الطلاب كان يسكن هذه المدارس التي يمكن تشبيهها بالكليات الداخلية في جامعتي أوكسفورد وكمبرج"[٣١].

ولقد كانت هذه المدارس آية من آيات الفن الإسلامي، أنفقت في بنائها الأموال الطائلة، وحبست عليها الأوقاف العظيمة، وجعلت الرواتب السخية لمعلميها وطلابها والموظفين بها. فمدرسة السلطان حسن (٧٥٧هـ) على سبيل المثال تعد من أعظم الآثار الإسلامية في مصر، وتلخص لنا واجهتها الرئيسية جميع خصائص الفن الإسلامي؛ ففيها الخط الكوفي، والخط النسخي، وفيها الزخارف التي نقلها المسلمون من الأمم، والزخارف التي أبدعوها وصارت من أخص مميزات فنهم[٣٢]. ومن الملاحظ أن المسجد كان يمثل جزءًا مهمًا من المبنى المدرسي، وأن افتتاح المدرسة كان يؤرخ له بتاريخ أول صلاة أقيمت فيها.

ويروي لنا التاريخ أن علماء ما وراء النهر أصابهم الهم والحزن عندما كوشفوا ببناء المدارس ببغداد، وقالوا أنه كان يشتغل به أرباب الهمم العالية الذين

---

[27] أحمد شلبي: التربية الإسلامية: نظمها، فلسفتها، تاريخها، مرجع سابق، ص ص ١١٣- ١١٤.

[28] مسلم: صحيح مسلم، كتاب الوصية- رقم الحديث ٣٠٨٤.

[29] عن أهمية الأوقاف في الحياة الثقافية والتعليم راجع كتاب محمد أمين علي: تاريخ الأوقاف في مصر.

[30] Makdisi: Muslim Inistitution of Learning, pp. 1- 56.
Tibawi: Origin and Character of Al- Madrasah, pp. 25- 238

[31] عبد الله عبد الدايم: التربية عبر التاريخ من العصور القديمة حتى أوائل القرن العشرين، ص١٥٥.

[32] محمد مصطفى زيادة وآخرون: تاريخ الحضارة المصرية،ص ص ٥٨٨- ٥٩٠.



المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

يقصدون العلم لشرفه، ولما صار عليه أجر تدانى إليه أرباب الكسل[٣٣]. إلا أن هذا الخوف سرعان ما تبدد، إذ ارتفع أكثر علماء المدارس إلى مستوى المسؤولية العلمية، ومارسوا واجبهم العلمي، وكانت لهم مكانة عظيمة، فسعى إليهم الملوك والأمراء[٣٤].

وبذلك انتشرت المدارس انتشارًا كبيرًا، حتى أن المقريزي يذكر لنا ثلاثًا وستين مدرسة كانت في القاهرة في عصره، ويصف الرحالة ابن جبير ثلاثين مدرسة كانت في بغداد، وكانت جميعها تفوق القصور جمالاً وروعة، وقد أفرد النعيمي الدمشقي مؤلفًا خاصًا يصف فيه مدارس دمشق وحدها[٣٥].

ويهمنا أن نلفت النظر إلى كثرة تلك المدارس، وخاصة مدارس القرآن والحديث، والفقه. وكانت تلك المدارس تضم مكتبات يرجع إليها طلاب العلم. ومن الأمثلة على ذلك أن المدرسة المستنصرية ببغداد ضمت دار كتب عامرة بأنواع المؤلفات التي بلغ عددها عند الافتتاح ثمانين ألف كتاب، عدا ما حمل إليها بعد ذلك. وكانت هذه الدار تساعد طلاب المستنصرية على النسخ والمطالعة والتأليف[٣٦].

## (٦) أماكن أخرى للتعليم

وإضافة إلى المؤسسات التعليمية السابقة فقد ازدهر العلم والتعليم في أماكن أخرى، منها: المكتبات المتخصصة، ودكاكين الوراقين، والربط والزوايا.

المكتبات المتخصصة: يعجب الدارس للعناية التي وجهها المسلمون لإقامة المكتبات، فقد كان عددها يزداد باستمرار كمًا وكيفًا. ويصف أحد الباحثين هذه الظاهرة فيقول: "نجد في البلاد الإسلامية جميع أنواع المكتبات: المكتبات العامة المفتوحة للجمهور على اختلاف أنواعه، وأجناسه، وثقافاته، والمكتبات الخاصة

---

[33] حاجي خليفة: كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، ج١، ص ٥٣.

[34] ناجي معروف: تاريخ علماء المستنصرية، ج١، ص ص ٥٧- ٦٠.

[35] النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس.

[36] ناجي معروف: تاريخ علماء المستنصرية، ج١، ص ص ٥٥- ٦٠.



المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

التي يمتلكها أفراد معنيون لخدمة أغراضهم الشخصية، والمكتبات الملحقة بالمساجد والجوامع والربط والخانقاه، ومكتبات الدولة التي ينشئها الخليفة أو الأمير أو حاكم الولاية، والمكتبات المتخصصة للدراسات العليا، والمكتبات التابعة للمدارس والجامعات على اختلاف أنواعها، والمكتبات الموجودة في المشافي والبيمارستانات"[٣٧].

لقد حرص الملوك والأمراء والسلاطين على تزويد تلك المكتبات بالجديد من المؤلفات، وأرسلوا البعوث بحثًا عن الكتب الجديدة؛ لشرائها واستجلابها إلى تلك المكتبات. وكانت المكتبات تقدم لروادها الخدمات والتسهيلات المطلوبة؛ وهذا ما وفر للطلاب والمعلمين ظروفًا مساعدة على البحث والدراسة؛ ولهذا نشطت حركة التأليف والترجمة في البلاد الإسلامية في شتى مجالات العلم.

دكاكين الوراقين: من الوسائط التربوية التي أدت دورًا مهمًا في نشر العلم والتعليم دكاكين الوراقين التي قدمت خدماتها لطلاب العلم بنسخ الكتب، وإرشاد الطلاب إلى بعض المراجع التي يحتاجون إليها في دراساتهم. ويكفي أن نذكر هنا أن ابن النديم صاحب كتاب الفهرست كان وراقًا، وأن كثيرًا من الطلاب قد وجدوا الإرشاد العلمي داخل تلك الدكاكين، إنها لم تكن مؤسسات لبيع الكتب وحسب؛ بل كانت مكانًا للقراءة، وطلب الإرشاد العلمي[٣٨].

الربط والزوايا والخوانق: المرابطة هي الإقامة بالثغر المعرض للعدو للذود عنه، والربط مكان المرابطة وجمعها ربط. ولما كانت الربط لإقامة الجند في الثغور فقد ضمت كثيرًا من العلماء والفقهاء. وعندما قل اشتغال المسلمين بالجهاد تحولت تلك الربط إلى تعلم العلوم الشرعية وتعليمها، ثم أصبحت فيما بعد ملتقى للزهاد والمتصوفة والمنقطعين لعبادة الله. أما الخوانق فهي جمع خانقاه وهو الاسم الفارسي لكلمة رباط العربية، ولكنها كانت أكثر التصاقًا بالتصوف منها بالجهاد. أما الزاوية فقد أطلقت على المسجد الصغير أو المصلى، ثم أخذت الطابع

[37] محمد ماهر حمادة: المكتبات في الإسلام، ص ص ٨٢- ١٤٧.

[38] سعيد إسماعيل علي: معاهد التربية الإسلامية، ص ص ٤٧٥- ٤٩٢.



المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الصوفي، وفي أحيان قليلة الطابع الجهادي الصوفي[٣٩]. وقد انحرفت بعض تلك المؤسسات عن دورها التربوي الإسلامي وخاصة في عصور الضعف.

## (٧)أهم طرق تعلم العلوم الشرعية

تعددت طرق التعليم والتعلم عند المسلمين بتعدد العلوم والمعارف. ومن هذه الطرق: التعلم الذاتي، والملازمة، والإملاء، والمناقشة أو المناظرة، والرحلة، والقدوة.

التعلم الذاتي: لقد أظهر العلماء المسلمون إدراكًا كبيرًا لأهمية طريقة التعلم الذاتي، فأبدوا حرصًا فائقًا على الإطلاع. ورغم عدم توافر الطباعة فقد أقبلوا على استنساخ الكتب واقتنائها بخطوطهم، أو خطوط النسخة والكتبة. ويعجب الدارس كيف استطاع العلماء في ظل هذه الظروف أن يجمعوا العدد الكبير من الكتب في مكتباتهم الخاصة، وأن يقضوا الساعات الطوال في القراءة الذاتية قراءة ناقدة واعية.

لقد كان الطالب ينتقل على يد معلم، إلى القراءة الدقيقة المتأنية؛ فيعلق على ما يقرأ، ويحقق، ويقارن، ويستخرج النتائج لنفسه. والواقع أن قراءة تراجم العلماء تظهر الدور الكبير الذي أدته طريقة التعلم الذاتي في حياة هؤلاء العلماء، والأهمية البالغة التي منحها المعلمون والطلاب لهذه الطريقة.

الملازمة: يستخدم علماء التراجم كثيرًا مصطلح الملازمة للدلالة على مصاحبة الطالب للمعلم لأوقات طويلة، سواء أكان ذلك في دروسه النظرية أم ممارسته العملية.

[39] سعيد إسماعيل علي: معهد التربية الإسلامية، ص ص ٤٩٣- ٥١٢.



المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

والطالب الملازم غير الطالب القارئ. وكلاهما موجود عند كتاب التراجم، فنجد كثيرًا أن فلانًا قرأ على فلان أو اشتغل على يد فلان. وبجوار ذلك نقرأ مثلاً: أن سديد الدين محمود بن عمر قرأ الطب على فخر الدين الماردني، ولازمه مدة طويلة، ولم يكن يفارقه في سفره ولا حضره، وأن رشيد الدين أبو سعيد اشتغل بعلم الطب على رشيد الدين علي بن خليفة، ولم يكن في تلامذته مثله، فإنه لازمة حق الملازمة، وكان لا يفارقه في سفره وحضره، وأقام عنده بدمشق وهو دائم الاشتغال عليه. وطبيعي أن هذه الملازمة الطويلة لكبار العلماء قد أتاحت للطلاب مزيدًا من الاحتكاك العلمي بالمعلمين، وبخاصة أن الطلاب لم يكونوا يلازمون غالبًا إلا العلماء الأعلام، كما يدل على ذلك أسماء الأطباء الذين ذكر ابن أبي أصيبعة أن لهم تلاميذ ملازمين[٤٠].

الإملاء: في ظل غياب الطباعة واعتماد العلم والتعليم على النسخ، اشتدت الحاجة إلى أن يملي المعلم على طلابه بعض الأمالي، وكانت الأمالي تشتمل على ذكر آراء السابقين في المسألة، ومناقشة المعلم لتلك الآراء، ثم طرح آرائه أو تجاربه العلمية في الموضوع. وكان الطالب يكتب في أول الدرس: أملاه شيخنا فلان، ثم يدعو له بالخير. وعلى سبيل المثال فإن إحدى أمالي أبي الفرج بن الطيب الطبيب تضمنت هذه العبارة: هذه الكراسة بخط سيدنا الأجل أبي النصر محمد ابن علي بن بزرج تلميذ أبي الفرج، أملاه الشيخ أبو الفرج، أطال الله بقاءه[٤١].

وكان الطالب يكتب المسألة موضوع المحاضرة، ويفتخر أنه كان من تلاميذ ذلك العالم، وأنه حضر أماليه العلمية، وكتبها بنفسه. ولكن الاعتماد على الإملاء كطريقة للتعليم اختفت بالتدريج، وحلت محلها طريقة القراءة من الكتب وشرحه، وذلك بعد رواج صناعة الورق، وانتشار الكتب[٤٢].

---

[40] ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص ص ٥٦٩- ٤٠٢.

[41] المصدر السابق، ص ٣٢٥.

[42] Tretton: Materials of Muslim Education, P 32.



المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

المناقشة والمناظرة: كان الفكر التربوي الإسلامي يشجع المناقشة، والمناظرة، والمطارحة، في التعليم؛ إذ لابد لطالب العلم من المذاكرة والمناظرة والمطارحة، لأن المطارحة والمناظرة أعظم فائدة من مجرد التكرار[٤٣]، وكانت تلك المناظرات تتم في جو علمي يتسم بالبحث عن الحقيقة، ولا يتدخل فيه الغرور، فإن المناظرة مشاورة، والمشاورة لاستخراج الصواب، وذلك إنما يحصل بالتأمل والإنصاف[٤٤]. ولاشك في أن هذه المناقشات والمناظرات كانت أداة طيبة لتبادل الآراء والأفكار العلمية بين المعلمين والطلاب.

الرحلة: في عالم إسلامي واحد لا يعرف الحدود بين أقاليمه ودوله، وفي ظل ظروف حياتية وفرتها الأوقاف الإسلامية، استطاع الطالب أن ينتقل من مكان إلى مكان؛ باحثًا عن العالم المشهور الذي يتتلمذ عليه، فيلازمه حتى يتخرج ويتقن الصنعة. ولقد تميز الفكر التربوي الإسلامي بالحث على الرحلة في طلب العلم؛ لما في الغربة من تفرغ نتيجة للبعد عن الأهل والوطن، ولأنها تهيئ المناخ للاحتكاك بروافد ثقافية جديدة مختلفة. ثم إن تحمل مشاق الرحلة يقوي إرادة الطالب فيدرك لذة العلم[٤٥]. يقول الزرنوجي: "ولابد لطالب العلم من تقليل العلائق الدنيوية بقدر الوسع، فلهذا اختاروا الغربة، ولابد من تحمل النصب والمشقة في سفر التعلم، كما قال موسى صلوات الله على نبينا وعليه في سفر التعلم، ولم ينقل عنه ذلك في غيره من الأسفار: "لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا"، وليعلم أن سفر العلم لا يخلو من التعب؛ لأن طلب العلم أمر عظيم، هو أفضل من الغزاة عند أكثر العلماء. والأجر على قدر التعب والنصب، فمن صبر على ذلك التعب وجد فيه لذة العلم تفوق لذات الدنيا. ولذلك كان محمد بن الحسن إذا سهر الليالي وانحلت له المشكلات يقول: أين أبناء الملوك من هذه اللذات"[٤٦].

ولاشك أن تلك الرحلات العلمية قد ساعدت على نشر العلم وذيوع المعرفة وتبادل الأفكار والآراء.

---

[43] ظهر الدين البيهقي: تاريخ حكماء الإسلام، ص ٨٠.

[44] طاش كبرى زاده: مفتاح السعادة ومصباح السيادة، ج١، ص ٣١.

[45] Tibawi: Arabic and Islamic Themes, p. 182.

[46] برهان الإسلام الزرونجي: كتاب تعليم المتعلم طريق التعلم، ص ص ١١٤- ١١٥.



المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

القدوة: ذلك أن المعلم لا ينقل إلى طلابه المادة العلمية فقط؛ بل ينقل إليهم ما يؤمن به من قيم وأفكار، وما يتحلى به من آداب وفضائل. وهو إن كان يقوم بنقل المادة العلمية بشعور منه وجهد، فإن الطلاب يأخذون عنه آدابه وفضائله دون شعور منه أو جهد، وذلك عن طريق الاقتداء. ولذلك تحفل أدبيات التربية الإسلامية بالحديث عن العالم وآدابه وأخلاقه[٤٧]، وكان علماء المسلمين مثلاً عليا لطلابهم: علمًا وتقوى، وورعًا. وعلماء المسلمين في ذلك يسبقون بكثير علماء التربية المحدثين؛ لأنهم أكدوا دور القدوة في التربية والتعليم عمومًا، وفي تكوين الاتجاهات والقيم لدى الطلاب خصوصًا[٤٨].

## (٨) الخاتمة

رأينا كيف تعددت مطارح تعليم العلوم الشرعية، والعقلية فشملت الكتاب والمدرسة والمسجد ودكاكين الوراقين، والربط والزوايا والخوانق. وكأني بطالب العلوم الشرعية والعقلية يجد فرصته في العلم والتعلم، وقد مكنت الأوقاف الإسلامية تلك المؤسسات من أن تمارس عملها بحرية، ودون تدخل. كما تعددت أيضًا طرق اكتساب العلوم الشرعية، ومن تلك الطرق: التعلم الذاتي، والملازمة، والرحلة في طلب العلم. وهكذا ظهرت أجيال متتالية من الطلاب والعلماء حملوا أمانة العلم وأمانة نشره والدعوة إليه.

وقد كان وراء تلك المؤسسات جميعًا روح إسلامية عامة تدفع وتحرك وتمول. ولذلك فإن الدرس الأول المستفاد من ذلك هو أننا نستطيع أن نفعل الكثير في خدمة العلوم إذا استطعنا أن نجعل الشعب يشارك من جديد في تمويل التعليم ونشره. إن عودة صور عصرية من الأوقاف الإسلامية تستطيع أن تفعل الكثير في مجال إيجاد مؤسسات تربوية، ترعى العلوم الشرعية والعقلية، وتيسرها للجمهور، وتجعلها في متناول يده. كذلك فإن الحس الشعبي إذا تحرك إسلاميًا فإنه

---

[47] عبد الرحمن النقيب النقيب: بحوث في التربية الإسلامية، ص ص ٧٥- ٨٣.

[48] أحمد زكي صالح: الأسس النفسية للتعليم الثانوي، ص ص ٤٠١- ٤٠٢.



المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

يستطيع أن يوفر الكثير من الخدمات الطلابية في مجال الإسكان، والغذاء، والرعاية الصحية، والنفسية. كما يستطيع توفير مكتبات عامة في كل مسجد ومدرسة.

كذلك ينبغي أن نلفت النظر إلى أهمية طرق التدريس الإسلامية التي كادت تختفي، مثل: التعلم الذاتي، والملازمة، والمناقشة والمناظرة، والمراسلة، والرحلة، والقدوة، وجميعها طرق أساسية لإنجاح العملية التعليمية. وأخيرًا فإن أهم ما ينبغي أن نلفت النظر إليه هو ربط التعليم عمومًا، وتعليم العلوم الشرعية على وجه الخصوص بالله تعالى. فهذا الربط هو الذي يجعل التعليم أكثر من أداة للحصول على درجة علمية تؤهل صاحبها لمركز معين، يدر عليه كسبًا ماديًا معيناً، وهو الذي يؤدي في نهاية المطاف إلى تنمية الشخصية الإسلامية القادرة على القيام بواجباتها خير قيام.



المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

## (٩) قائمة المصادر


١. **القرآن الكريم.**

٢. **ابن أبي أصيبعة، أحمد**

عيون الأبناء في طبقات الأطباء.- القاهرة: المطبعة الوهابية، ١٢٩٩هـ.

٣. **ابن حزم، علي بن أحمد**

الفصل في الملل والأهواء والنحل.- القاهرة: طبعة عبد الرحمن خليفة، ١٣٤٧هـ.

٤. **أحمد زكي صالح**

الأسس النفسية للتعليم الثانوي.- القاهرة: النهضة المصرية، ١٩٥٩م.

٥. **أحمد شلبي**

التربية الإسلامية: نظمها، فلسفتها، تاريخها.- القاهرة: النهضة المصرية، ١٩٧٣م.

٦. **أحمد فؤاد الأهواني**

التربية في الإسلام.- القاهرة: دار المعارف، ١٩٨٠م.

٧. **برهان الإسلام الزرنوجي**

كتاب تعليم المتعلم طريق التعليم.- تحقيق مروان قباني.- بيروت: المكتب الإسلامي، ١٩٨١م.

٨. **حاجي خليفة**

كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون.- استانبول: وكالة المعارف، ١٩٤٣م.

٩. **سعيد إسماعيل علي**

معاهد التربية الإسلامية.- القاهرة: دار الفكر العربي، ١٩٨٦م.

١٠. **طاش كبرى زاده**

مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم.- القاهرة: دار الكتب الحديثة، ١٩٦٨م.




المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

١١. **ظهير الدين البيهقي**

تاريخ حكماء الإسلام.- دمشق: مطبعة الترقي، ١٩٤٦م.

١٢. **عبد الحي الكتاني**

نظام الحكومة النبوية المسمى التراتيب الإدارية.- د.م: د.ن، ١٩٨٠؟.

١٣. **عبد الرحمن الحجي**

نظرات في دراسة التاريخ الإسلامي.- بيروت: دار القلم، دمشق، ١٩٧٩م.

١٤. **عبد الرحمن النقيب**

بحوث في التربية الإسلامية.- الكتاب الأول.- القاهرة: دار الفكر العربي، ١٩٨٣م.

١٥. **عبد الرحمن النقيب**

بحوث في التربية الإسلامية.- الكتاب الثاني.- القاهرة: دار الفكر العربي، ١٩٨٤م.

١٦. **عبد الله عبد الدايم**

التربية عبر التاريخ من العصور القديمة حتى أوائل القرن العشرين.- بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٧٨.

١٧. **محمد ماهر حمادة**

المكتبات في الإسلام: نشأتها وتطورها ومصارئرها.- بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٧٨م.

١٨. **محمد محمد أمين**

الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر: ٢٥٠- ١٥١٧م.- القاهرة: دار النهضة المصرية، ١٩٨٠م.

١٩. **محمد مصطفى زيادة وآخرون**

تاريخ الحضارة المصرية: العصر اليوناني والروماني والعصر الإسلامي.- القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٦٢م.

٢٠. **المقريزي، أحمد بن علي**

الخطط المقريزية.- القاهرة: مطبعة النيل، ١٣٢٦هـ.



المنارة للاستشارات

www.manaraa.com

**٢١. ملكة أبيض**

التربية والثقافة العربية في الشام والجزيرة خلال القرون الثلاثة الأولى للهجرة بالاستناد إلى مخطوط تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر.- بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٨٠م.

**٢٢. موسوعة الحديث الشريف- الإصدار الأول- شركة صخر- ١٩٩٦م.**

**٢٣. ناجر معروف**

تاريخ علماء المستنصرية.- بغداد: مطبعة العاني، ١٩٦٥م.

24. **Makdisi, G**:"Muslim Institution of Learning in the Eleventh Century: Baghdad" in The Bulletin of the School of Oriantal and African Studies- London: University of London, Vol. XXIV, 1961.
25. **Nasr, S.H.**:Islamic Science: An Illustrated Study.- London: World of Islam Festival Publishing Co. Ltd., 976.
26. **Tibawi, A.L:**Arabic and Islamic Themes.- London: Luzac Company, 1974.
27. **Tibawi, A.L:**"Origins and Character of Al- Madrasah", in The Bulletin of the School of Oriental and African Studies.- London: Univeristy of London, Vol. XXIV, 1961.
28. **Tritton, A.S.:** Materials on Muslim Education in the Middle Ages.- London: Luzac Company, 1957



المنارة للاستشارات
www.manaraa.com